


المنظومة
ALMANDUMAH

التعريف بمؤسس الزاوية التجانية بفــــاس

ذ.أحمد الأزمي *

قد يبدو للقارئ لأول وهلة أن تخصيص دراسة بأكملها للتعريف بشخصية من الشخصيات اللامعة في أحد مجالات العلوم الإنسانية أو غيرها يعد شيئا مبالغا فيه إلا أنه من الأمور المسلم بها ، إن مواهب الإنسان ومداركه واستعداداته الذهنية تتفاوت وتختلف من شخص لآخر ، وبنسب متفاوتة جدا أحيانا. ويترتب عن هذا الواقع أن الموهوبين والعباقرة من صفوة الرجالات يشكلون قلة متميزة في مجتمعاتهم، بفعل المنجزات الفكرية والإبداعية التي يقومون بها ويسجلها لهم التاريخ بمداد من ذهب إجلالا للخدمات الجليلة والفوائد الجمة التي قدموها لأجيالهم وورثها عنهم أسلافهم والتي شكلت لبنات أساسية في صرح البناء الحضاري الإنساني. غير أنه علاوة على العلوم الكونية الدنيوية توجد علوم لدنية يهبها الله لمن يشاء من عباده الصالحين بعد إزاحة الحجب عنهم ، فيصيرون بعد ذلك من عباد الرحمان الذين يتكلمون بنور الله والذين يصدق فيهم قوله تعالى :"واتقوا الله ويعلمكم الله"(1) أي يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون بالوسائط من العلوم الإلهية ، حسب بعض التفاسير(2). وفي نفس الموضوع يقول سبحانه وتعالى :"ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض(3)". وقوله عز وجل :"ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب"(4) .وقوله أيضا :"والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وان الله لمع المحسنين"(5). وقد ورد في أحاديث الرسول (ص) ما يدل بشكل لا غموض فيه أن الله يجازي أصفياءه أحسن الجزاء لحسن ظنهم بالله، وتفانيهم في عمل كل ما يرضيه يقول صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى :"قال من عادى لي وليا فقد آذنته

• ــ أستاذ باحث من كلية الآداب ظهر المهراز ــ فاس.

بالحرب، وما تقرب إلي عبد بشيء أحب إلي مما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها،ولئن سألني لأعطينه،ولئن استعان بي لأعيننه ، رواه البخاري"(6). ولا نبالغ إذا قلنا أن الشخصية التي نريد أن نعرف بها تنتمي إلى هذه الصفوة ممن أحبهم الله فأطلعهم على علوم الظاهر والباطن بغير حساب ، وهو ما يجعل مهمة الباحث صعبة ، إذا ما أراد الإحاطة بكل جوانب حياتهم الفكرية والمعرفية والروحية لذلك فإن الفصل الذي نخصصه لهذا الغرض يهدف فقط إلى تقريب هذا العارف بالله من القارئ باعتباره مؤسسا للزاوية التجانية بفاس.

1.النشأة والدراسة في بيئة مفعمة بالورع والصلاح:

ولد سيدي أحمد بن محمد التجاني عام 1737 / 1150 (7) بعين ماضي مقر أسلافه المتأخرين باعتبار أن جده الرابع سيدي محمد بن سالم انتقل من قبيلة عبدة ، أحواز مدينة أسفي مع أسرته بالمغرب الأقصى إلى بني "توجين"(8) أو "تجانة"(9) وتزوج منهم ، وصار أولاده وأحفاده يعرفون بالتجانيين. وبذلك يتضح أن الشيخ سيدي أحمد التجاني ، انتسب لأخواله في هذا اللقب ، ولا علاقة له بنسبه العرقي الحقيقي ،كما تذهب إلى ذلك مختلف المؤلفات التجانية التي ترفع نسبه إلى محمد النفس الزكية ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب(10). ويعد صاحب تحفة الزائر، من بين الذين أكدوا على النسب الشريف ، والأصل المغربي لهذا العلامة (11)، مع ملاحظة أن هناك من يشك في صحة نسب سيدي أحمد التجاني ، الشريف. وحجة المتشككين في هذا النسب ، أن أجداد هذا الشيخ لم يدعوا قط أنهم شرفاء منذ قدومهم إلى عين ماضي، وإلا لما قبلوا حمل لقب قبيلة تجانة التي تصاهروا معها (12) . وبخصوص هذا الموضوع ، يرى محرر جواهر المعاني علي حرازم برادة ، أن شيخه سيدي أحمد التجاني ، لم يعر مسألة صحة هذا النسب أو عدم صحته أي اهتمام ، إلى أن أكد له نسبه الشريف الرسول (ص) عندما قال له يقظة :"أنت ولدي حقا"(13) و"نسبك إلى الحسن بن علي صحيح"(14).

وبذلك لا مجال للشك أو الطعن في هذا النسب لدى التجانيين ، باعتبار قدسية المصدر واستثنائيته ، بل كثير من القضايا الشائكة ، كما سنرى ، في إطار التصوف التجاني، يحسم فيها أصحابها عن طريق توظيف مفهوم الكرامات والخوارق لكن في غالب الأحيان من غير تناقض مع روح الكتاب والسنة .

إن البيئة التي ترعرع فيها سيدي أحمد التجاني ، بعين ماضي (15) وتأثر بقيمها ونهل من معين علمائها ورجالاتها ، تعد بيئة مفعمة بالعلم والورع باعتبارها مركزا للمعرفة والولاية والصلاح منذ تأسيسها في حقبة تاريخية غير معروفة بشكل مضبوط(16). وهكذا فحيثما كان يتحرك سيدي أحمد التجاني الطفل ثم الشاب

داخل هذه البلدة كان يجد نفسه بين أهل العلم والمعرفة وفي رعاية الفقهاء والصلحاء. إن كان في بيته وأحضان أسرته وجد نفسه جنبا إلى جنب مع متبعي السنة النبوية من المتيمين بالعشق الإلهي والنور المحمدي ، وإن خرج إلى المسجد والزاوية صار في رحاب أساتذة وعلماء مجندين لتلقين تلامذتهم ما يفيد ويقرب إلى الله من العلوم الإسلامية. ولإبراز أهمية عين ماضي في المجال العلمي ، نورد شهادة في الموضوع للرحالة المغربي الشهير ، العلامة الراوية ، خلال القرن 17 (ت 1680) أبو سالم العياشي ، في ما كتب به إلى بعض إخوانه من علماء سجلماسة حينما كان على أهبة الاستعداد لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول (ص) يوصيه بما يحتاج إليه في وجهته وينبهه على ما يجب التنبيه عليه في رحلته ، فذكر له المراحل والبلاد حتى انتهى إلى عين ماضي بلدة سيدي أحمد التجاني ، فنوه بقدر من اشتملت عليه من الأعلام ، ثم قال له :"فإذا حللتها فشحذ ذهنك لمذاكرة أهلها في كليات الفنون وجزئياتها ، واستعد للجواب عما يلقونه عليه من مسائل منقولياتها ومعقولياتها(17) ". ومن بين الدارسين الذين وقفوا على أهمية عين ماضي العلمية وكثرة رباطاتها ، وعاينوا وزاروا هذه البلدة في العهد الاستعماري ، نذكر كوبولاني Coppolani وأوكطاف Octave (18) ،ثم لويس رين L. Rinn (19). وربطوا سبب انتشار العلم بهذه البقاع وكثرة الوافدين عليها للتربية الروحية والتحصيل المعرفي ، بما قام به في الأصل بعض الدعاة المسلمين من الأشراف الذين أتوا من المغرب خلال القرن 17 لتأسيس مجموعة من الزوايا المنتشرة هنا وهناك ، امتد شعاعها إلى باقي شمال إفريقيا ، وفي ما وراء الصحراء . وقد بلغت أهمية عين ماضي العلمية والروحية ، طبقا لهذه المصادر أوجها مع سطوع نجم سيدي أحمد التجاني. وهي الحقيقة نفسها التي تستنتج من خلال بحث أعده طالب جزائري سنة 1977 (20)، ورد فيه أن الواحات الممتدة في الصحراء الشرقية من توات حتى توكورت ، مرورا بعين ماضي ، وإلى عهد سيدي أحمد التجاني كانت تضم عددا هائلا من الزوايا والمساجد والأضرحة تضطلع بمهمة تحفيظ القرآن الكريم والسنة النبوية تحت إشراف أساتذة مغاربة.

وإذا كانت بلدة عين ماضي على هذه الأهمية من العلم ، فإن جل أفراد أسرة شيخنا الذين يشكلون إحدى مكونات هذه البلدة العلمية ، كانوا على مستوى رفيع من علمي الظاهر والباطن. فأبوه محمد ابن المختار كان شيخ زاوية(21)، ويذكر عنه علي حرازم برادة أنه :"الشيخ الإمام كهف الإسلام وملاذ الأنام العالم الشهير الورع الكبير الدال على الله والجامع عليه ... محجة العلماء العاملين ومحجة السالكين المسترشدين ... وكانت تأتيه الروحانية ، يطلبون منه قضاء حوائجهم كان يمتنع ويقول اتركوني بيني وبين الله ، لا حاجة لي بالتعلق سوى الله ... وكان له بيت في داره لا يدخله أحد إلا لذكر الله "(22).

كما أن أمه عائشة بنت الولي الجليل سيدي محمد السنوسي التجاني الماضوي كانت سيدة فاضلة ذات أخلاق كريمة ، لها من الصلاح مكانة علية ومرتبة سنية(23). وفي هذه البيئة أيضا نشأ أخوه محمد المكنى بابن عمر حافظا للقرآن الكريم مشاركا في علوم الشريعة متقنا لعلوم الفرائض والحساب(24).

عندما يتعمق الباحث في دراسة عمود نسب سيدي أحمد التجاني وتراجم أسلافه ، يتأكد من علو كعب أسرته في العلم والمعرفة. فأجداده كانوا في معظمهم من خيرة العلماء واللحاء على غرار ما نقرأه عن جديه الثالث والرابع. فالأول من هذين الجدين هو " أحمد بن محمد العلامة ، عالم العلماء وأمير الأمراء ، صاحب الحال القوي والنور السني(25). أما الثاني فهو محمد بن سالم الشيخ الولي المكين العلي ذو النور اللائح والجذب الواضح ... وكان إذا خرج من داره للمسجد يتبرقع ولا يرى أحد وجهه إلا إذا دخل المسجد ثم إذا رجع إلى داره عاد إلى ستر وجهه حتى يدخل لخلوته(26) ..." وقد سئل سيدي أحمد التجاني عن سبب ستر هذا الجد لوجهه ، فأجاب بما يفيد أنه بلغ مرتبة الولاية، ومن بلغها يصير كل من رأى وجهه لا يقدر على مفارقته طرفة عين وإن فارقه وانحجب عنه مات لحينه ، هذا السيد ، يفيد ابن المشري هو الذي وفد أولا لعين ماضي واتخذها موطنا له وتزوج من أهاليها(27). في ظل هذه الرعاية النموذجية وفي أحضان هذه الأسرة المحبة للعلم والصلاح نشأ أحمد التجاني كريم الأخلاق مقبلا على الجد والاجتهاد متمسكا بالدين وسنة المهتدين معظما عند الخاصة والعامة. وبسبب هذه الظروف المطبوعة بالعناية المتميزة ، وفي ظلها حفظ القرآن على ظهر قلب وهو ابن سبع سنوات من عمره برواية الإمام ورش تلميذ الإمام نافع ، وكان أستاذه في هذه المادة الفقيه العلامة المقرئ ، سيدي محمد بن حمو التجاني الماضوي الذي تتلمذ بدوره في حفظ القرآن وقراءته على شيخه العارف بالله سيدي عيسى بوعكاز الماضوي التجاني(28). وبعد حفظ القرآن اشتغل سيدي أحمد التجاني بطلب العلوم الأصولية والفروعية والأدبية حتى تعمق فيها وأدرك أسرار معانيها ، يستوي عنده في اهتمامه المنقول والمعقول. وعلى شيخه المذكور قرأ مختصر الشيخ خليل والرسالة ومقدمة ابن رشد والأخضري كما تتلمذ في نفس العلوم وخصوصا المختصر على شيخه سيدي المبروك بوعافية التجاني (29) واستمر في طلب العلم ببلاده حتى بلغ مرتبة أهلته للتدريس والإفتاء قبل أن يرحل رحلته الأولى إلى فاس. ثم ما لبث وهو في عين ماضي أن مال إلى الزهد والانعزال والتأمل وحبب إليه التعبد وقيام الليل حتى إذا بلغ سن الرشد صار يدل على الله وينصح عباده وينصر سنة رسوله ويحيي أمور الدين وقلوب المؤمنين ، فصار يضرب به المثل في إحياء السنة واتباع المحجة البيضاء ، وحق له أن يسمى محيي الدين ومجدد ما اندرس واضمحل من إيمان المسلمين(30).

ولعل هذه المؤهلات هي التي جعلت سكان بلدة عين ماضي يوافقون بالإجماع على خلافة والده في رئاسة الزاوية رغم صغر سنه الذي كان يبلغ آنذاك ستة عشرة سنة وهي المهمة التي مارس خلالها لمدة خمس سنوات تدريس القرآن والسنة وعلوم إسلامية أخرى(31). لم يكتف سيدي أحمد التجاني بالرصيد المعرفي الفقهي والصوفي الذي حصل عليه في المغرب الأوسط بمسقط رأسه، على ما يبدو فطموح الفتى الورع لا حدود له ، والتعاليم الدينية تحث المسلم على طلب العلم من المهد إلى اللحد ، وأرض الله واسعة ، وبما أن صاحبنا كان شغوفا بالقراءة والمطالعة فهو بدون شك كان يدرك تمام الإدراك أهمية المرحلة في استكمال المعرفة وتوسيع آفاق الفكر وصقل الموهبة وتعلم الصبر على الشدائد ، وهي صفات سهلة المنال بالنسبة لمن يعشق قيام الليل من الركع السجد من طراز هذا الرجل.

II ـ رحلاته من أجل استكمال المعرفة وطرق أبواب الولاية:

أول رحلة قام بها سيدي أحمد التجاني خارج عين ماضي كانت إلى فاس سنة 1171/1758 (32) ولعل وقوع اختياره على هاته المدينة، لتكون أول بقعة يضع على أرضها رجليه ، لم يكن صدفة ، بل كان صادرا عن اقتناع وبعد نظر خصوصا وأن أعمال العقلاء منزهة عن العبث. فالمدينة الإدريسية حركت مشاعره لعدة اعتبارات في مقدمتها أهميتها العلمية وقداستها ورمزيتها التاريخية ، وقوة شحنتها الروحية وعداء أهلها للأتراك الذين يكرههم بدوره ، علاوة على أنها جزء من المغرب الأقصى بلده الأصلي باعتبار أن أجداده نزحوا إلى المغرب الأوسط من ناحية مراكش كما سبق. وهذا ما يفسر تعدد زياراته لمدينة فاس إلى أن استقر فيها بصفة نهائية. ورغم أن كل هذه الأسباب تبقى واردة إلا أن الدوافع العلمية والروحية تتصدرها كلها.

غادر سيدي أحمد التجاني إذن عين ماضي في اتجاه مدينة فاس وهو في بداية عقده الثالث ، حسب تقدير البعض . وخلال المدة التي قضاها بها كان يحضر مجالس أهل العلم ليستمع لبعض ما يدور فيها من شروح وتفاسير في علوم القرآن والحديث ، ثم ارتحل إلى جبل العلم لأخذ القراءة بالتجويد ، والقراءات السبع المتواترة على بعض المتقنين لذلك بتلك البلدة(33) ، طبقا لما أفاد به كل من علي حرازم برادة ومحمد العربي بن السايح. وفي هذا الصدد تفيد إحدى الباحثات المغربيات أن سيدي أحمد التجاني كان يدخل في مساجلات فقهية ولاهوتية مع كبار علماء مدينة فاس ، وأنه حصل منهم على إجازات خولت له إمكانية تدريس مختلف مواد العلوم الإسلامية ، لكن دون أن تحيل على المصدر الذي استقت منه معلوماتها(34). إن الباحث من خلال رصده لتحركات سيدي أحمد التجاني في رحلته الأولى هذه يلاحظ أن اهتمامه كان منصبا على الجانب الروحي أكثر من أي شيء

آخر يشهد على ذلك نوعية الأشخاص الذين التقى بهم وشد الرحال إليهم إما داخل المدينة أو خارجها ، ونكتفي بتقديم أهمهم :

1 ــ التقى في مدينة وزان بالعارف بالله مولاي الطيب بن سيدي محمد بن مولاي عبد الله بن إبراهيم اليملحي ، العلمي الوزاني (ت 1180) وكان هذا الشيخ هو القائم آنذاك بأمور الطريقة بالزاوية الوزانية ، خلفا لأخيه الشيخ مولاي التهامي الوزاني (35) ، فأذن له مولاي الطيب في تلقين ورده لكنه امتنع ، وهذا يخالف ما أورده إدريس العراقي من أن سيدي أحمد التجاني تمسك بالطريقة وواصل تعبده بتعاليمها(36).

2 ــ وفي جبل الزبيب ببني وانجل تعرف على العارف بالله سيدي محمد بن الحسن الونجلي(ت1185)أخبره عن طريق المكاشفة أنه سيدرك مقام القطب الكبير أبي الحسن الشاذلي وأشار إليه بالرجوع إلى بلده واكتفى سيدي أحمد التجاني بالتبرك به دون الأخذ عنه(37).

3 ــ بمدينة فاس لقي الولي الصالح سيدي عبد الله بن سيدي العربي المعني الأندلسي، (ت1188) من أولاد معن وتكلم معه في عدة أمور ودعا له بأن يأخذ الله بيده(38).

4 ــ أخذ عن الولي الصالح الملامتي سيدي أحمد الطواش (ت 1204) نزيل تازة فلقنه اسما وطلب منه لزوم الخلوة والوحدة والذكر والصبر حتى يفتح الله عليه وأخبره بأنه سينال مقاما عظيما ، فداوم أحمد التجاني على العمل بهذه الأذكار مدة يسيرة ثم تركها(39).

5 ــ أخذ الطريقة القادرية بفاس ، غير أن المصدر الذي أورد هذا الخبر لم يذكر شيخه في هذه الطريقة ، واكتفى بالقول إن هذا الأخذ كان على يد من كان له الإذن في ذلك ، إلا أن سيدي أحمد التجاني طبقا لنفس المصدر ما لبث أن تخلى عنها (40).

6 ــ تعرف على تعاليم الطريقة الناصرية عند التقائه بالولي الصالح سيدي أحمد بن عبد الله التزاني ، ثم تركها بعد حين(41).

7 ــ أخذ الطريقة الصديقية المنسوبة للقطب الشهير سيدي أحمد الحبيب بن محمد الغماري السجلماسي الصديقي (المتوفى عام 1165) على يد من له الإذن فيها(42).

هذه باختصار شديد هي حصيلة اللقاءات والاتصالات التي أجراها سيدي أحمد التجاني خلال رحلته المذكورة إلى فاس ونواحيها في المجالين العلمي والروحي من أجل مواصلة بناء شخصيته والعثور على ضالته قبل العودة إلى الصحراء.

وقبل الانتقال إلى مواصلة الحديث عن ما تبقى من هذه الرحلة الطويلة نود التوقف لإبراز بعض الملاحظات، حول ما تقدم وما سيأتي من معلومات ترتبط بحياة الشيخ الذي نحن بصدد التعريف به ، وهي كالآتي :

لا تسمح لنا المصادر المتوفرة،وهي بأقلام التجانيين في غالبيتها العظمى بمعرفة المدة التي قضاها بفاس في رحلته الأولى إليها،قبل العودة إلى الأقاليم التابعة لمسقط رأسه.

يترتب عما سبق أنه في غياب مصادر بديلة تبقى كثير من الأسئلة دون إجابة أهمها الغياب التام لأية معلومات حول دراسة سيدي أحمد التجاني بجامعة القرويين أو تدريسه بها ، ومناهج هاته الدراسة وطبيعة المواد التي يدرسها أو يدرسها وأهم الأساتذة الذين أخذ عنهم ، ولاشيء أيضا عن أماكن إقامته وسكناه.

يبدو من خلال قراءة المؤلفات التجانية أن أصحابها وجهوا عناية خاصة لشيخهم في رحلته الثانية والثالثة إلى فاس ، أي عندما أصبح هذا الرجل متكامل الشخصية ملما بعلمي الظاهر والباطن ، حاصلا على قدر كبير من الولاية ، قادرا على كسب عطف واحترام الجميع ، وحتى في هذه الحالة فإن أغلب ما كتب عنه تم بأمر منه بناء على ما أبلغه به الرسول (ص) من أذكار وأوراد كما يقولون ، مما جعل التعرف على فترة يفاعته وشبابه بشكل مفصل شيئا يتعذر الحصول عليه.

انطلاقا من هذا المستوى من التوثيق لا يمكن أن تتوفر المعلومات عن شيخنا إلا بالشكل الذي تكلم عنه أصحابه ، وذلك بتغليب الجانب الروحي والصوفي على أي جانب آخر باعتبار أن الأخبار عن اتصالاته بأهل الصلاح والولاية تشكل ما يزيد عن تسعين في المائة في مجملها مقارنة مع ما ورد في نفس المصادر من أخبار تتعلق بحضوره في جامعة القرويين ولقاءاته مع علمائها. وقد يكون وراء هذا الشح عوامل متعددة ، أبرزها مكانة الرجل الاجتماعية المتواضعة في كل شيء باستثناء العلم والعشق الإلهي. فهو لم يكن من أصحاب المال الميسورين ، ولا من القواد العسكريين البارزين ولا من جهابذة السياسة المحنكين، لذلك كان أقرب الناس إليه من المريدين والأصحاب هم الذين عرفوا قيمته وتتبعوا دقائق مراحل حياته العلمية والوجدانية في الحل والترحال ، فعكسوها في مؤلفاتهم بالشكل الذي مكنهم من إبراز مسار شيخهم الصوفي أكثر من أي شيء آخر. وإذا عدنا إلى تتبع محطات رحلات سيدي أحمد التجاني خارج عين ماضي بعد زيارته لفاس ونواحيها ، وبعد أن أتى البيوت من أبوابها ، نلاحظ أنه ، امتثالا لأمر الشيخ سيدي محمد بن الحسن الوانجلي الذي أشار عليه بالرجوع إلى بلده، وأن فتحه لايكون إلا هنالك(43) ، شد الرحال إلى الصحراء قاصدا بلد الأبيض حيث زاوية الشيخ الكبير سيدي عبد القادر بن محمد المعروف بسيدي الشيخ القطب الصديقي الشهير فاختارها منزلا وقرارا وانقطع فيها للعبادة والتدريس والإفادة لمدة خمس سنوات زار خلالها بلدة عين ماضي (44)، مسقط رأسه ودار آبائه وأجداده ، وهو بقضائه هذه المدة الطويلة بالصحراء القريبة من بلدته كان يدرك تمام الإدراك أنه يسير في الطريق الصحيح، طريق السلوك والترقي في المقامات والمعارج الموصلة إلى الحضرة الربانية لأن إشارة العارفين مثل الشيخ الوانجلي يجب أن تؤخذ مأخذ الجد

خصوصا من قبل رجل آمن برجحان المنقول على المعقول ، وبمحدودية القوى العقلية إزاء العلوم الوهبية والأسرار الأهلية التي يمنحها الله لمن يشاء من أوليائه ومن عباده الذين أزال الغشاوة عن أعينهم بفضل زهدهم ومجاهدتهم وكثرة أذكارهم. بعد زيارة أولياء الله الأحياء منهم والأموات بفاس ونواحيها ، وبعد اعتكافه بزاوية الشيخ لمدة خمس سنوات رحل إلى تلمسان عام 1772 / 1186 (45).
علاوة على ميوله الصوفي منذ طفولته ، يكون سيدي أحمد التجاني ، وهو في هذه المرحلة في الأربعينات من عمره ، قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من قطف ثمار مجاهدته ومثابرته الرامية إلى تتسم أعلى مقامات التصوف والإطلاع على كنه أسراره ، ولحرق ما تبقى من المراحل ، وردم الهوة الفاصلة بينه وبين هدفه الأسمى، كان عليه تحمل المشاق ومكابدة الصعاب ، وتحمل ألم الغربة ، وفراق الأحباب مرة أخرى للاستزادة من معرفة مشايخ الطرق وأهل الولاية والصلاح في مغرب البلاد الإسلامية ومشرقها ، مرورا ببلدان المغرب العربي ومصر إلى الديار المقدسة لزيارة الكعبة الشريفة وقبر الرسول (ص) ، إيمانا منه بأن زيارة الصلحاء والأولياء وقبر الرسول تحيي القلوب وتملأها بحب الله ورسوله ، وتغفر الذنوب ، من جهة ومن جهة أخرى كان سيدي أحمد التجاني يشعر في قرارة نفسه أن غرضه سوف لن يقضى إلا بتنفيذ هذا البرنامج الحافل والشاق في آن واحد لكن أهمية الجزاء المرتقب كانت تهون عليه كل صعب.

الرحلة إلى بلاد الحجاز مرورا بالمغرب العربي ومصر:

من زاوية الشيخ بالصحراء انتقل سيدي أحمد التجاني إلى تلمسان (مدينة الجدار) ثم غادرها عام 1186 ، قاصدا زيارة بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه السلام ، فلما وصل إلى بلاد زواوة وهو في طريقه من الجزائر إلى تونس أقر العزم على زيارة شيخ هذه البلدة سيدي محمد بن عبد الرحمان الأزهري ، ذي الصيت الواسع والزوايا الكبيرة والأتباع الكثيرين ، فتمكن من لقائه وأخذ عنه الطريقة الخلوتية(46) . ولما وصل إلى تونس ، في نفس السنة تعرف على بعض الأولياء ، منهم سيدي عبد الصمد الرحوي أحد مريدي قطب البلد الذي لا يسمح بأن يراه أحد ، فطلب سيدي أحمد التجاني من سيدي عبد الصمد هذا أن يتوسط له في رؤية ذلك القطب فلم يفلح في تحقيق مراده ، إلا أن القطب التونسي ، أبلغ سيدي أحمد التجاني ، عن طريق رسول خاص ، أنه محبوب(47). ويضيف المصدر نفسه أن الشيخ المغربي مكث سنة بتونس ، بعضها بمدينة سوسة وبعضها بتونس العاصمة التي أفتى بها وأجاب على كثير من الأسئلة ، ودرس عدة علوم وكتب ، في مقدمتها كتاب الحكم . فذاع صيته وبلغ خبره إلى أمير البلاد الذي طلب منه الإقامة بالديار التونسية للتدريس والإفادة من علومه فأعطاه دارا وخصص له أجرة مهمة للعمل. غير أن سيدي أحمد التجاني الذي كان كل وجدانه مشدودا إلى

ما هو أطهر وأسمى ، رفض العرض وغادر البلاد(48) . وبمجرد وصوله إلى مصر القاهرة بحرا شرع يبحث عن شيخها الأكبر في ذلك الوقت سيدي محمد الكردي المصري دارا وقرارا العراقي أصلا ومنشأ ولما التقى به جرت بينهما مذاكرات ، فسأل الشيخ الكردي سيدي أحمد التجاني بعد أيام عن مطلبه ، فأجابه بأن مطلبه هو الحصول على القطبانية العظمى فقال له لك أكثر منها(49). ومن مصر توجه بحرا إلى بيت الله الحرام ، وكان وصوله إلى مكة في شهر شوال عام 1773 / 1187 ، فسمع بها بالشيخ أبي العباس سيدي أحمد الهندي الذي لم يكن له أيضا إذن بملاقاة أحد ، ورغم ذلك أخذ عنه سيدي أحمد التجاني علوما وأسرارا من غير ملاقاة له ، وتحقق ذلك بواسطة خادمه ، فأخبره بما يؤول إليه أمره وبشره بأنه سيرث أسراره ومواهبه وأنواره ، فاغتاظ خادم الشيخ الهندي ، لما فاه به سيده لصالح السالك المغربي ، واستاء للإرث النفيس الذي آل له من شيخ مكة الأكبر في فترة وجيزة من الزمن ، وأصيب تبعا لذلك بخيبة أمل كبيرة وهو يرى الثمانية عشر سنة التي قضاها في خدمة هذا القطب تذهب أدراج الرياح ، فكان جواب شيخه(50) ، أن ليس لأحد في هذا الأمر اختيار ، "ولو كان الاختيار لي لنفعت بذلك ولدي قبلك " وقبل موته سنة 1187/1772 ، أعطاه سرا كبيرا وأمره أن يذكره سبعة أيام ويعتزل الناس ليفتح الله عليه ، لكن سيدي أحمد التجاني لم يعمل بذلك ، وقبل مغادرة مكة أخبره شيخها بأنه سيلتقي بالقطب السمان بالمدينة المنورة وبشره أيضا بأنه سيبلغ مقام أبي الحسن الشاذلي(51)، كما سبق أن أخبره بذلك سيدي محمد بن الحسن الوانجلي المتقدم ذكره. لما أكمل شعائر زيارة مكة وكمل حجه ارتحل للمدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ، وبعد أن حقق هذه الرغبة ، بذل عدة مساع لملاقاة قطب المدينة المنورة سيدي محمد بن عبد الكريم السمان إلى أن التقى به. وخلال هذا اللقاء طلب من سيدي أحمد التجاني أن يدخل الخلوة عنده لمدة ثلاثة أيام ، فاعتذر عن عدم تلبية هذا الطلب ، لسبب لا يعلمه إلا هو ، ورغم ذلك أذن الشيخ السمان لضيفه في جميع الأسماء وأخبره بأنه هو القطب الجامع ، وبشره بنيل المرام والحصول على الإذن المطلق العام(52) .

العودة من المشرق إلى المغرب والرحلة الثانية إلى فاس :

عاد إلى القاهرة مع ركب الحجيج وبمجرد وصوله ذهب لزيارة شيخه الكردي والسلام عليه ، تأدبا ، فرحب به وطلب منه أن يعود لزيارته كل يوم ، فامتثل لرغبة سيده ، وتطور هذا اللقاء اليومي بينهما إلى جلسات علمية ومناظرات ، كان الكثير من الحاضرين يطرحون خلالها ما أشكل عليهم من المسائل والقضايا فكان يجيب عليها بكل كفاءة واقتدار مما تسبب في ذيوع صيته بمصر ووفود الكثير من العلماء عليه للاستفادة من علومه الغزيرة . والشيخ محمد الكردي هذا هو الذي أذن له في طريق الخلوتية والتربية الروحية فكتب له الإجازة وسند الطريق وقد أورد

صاحب جواهر المعاني هذا السند بكامله(53). ومن مصر عاد إلى تونس التي لم يمكث بها طويلا على ما يبدو . ومنها انتقل عام 1774/1188 إلى تلمسان التي قضى بها حوالي ثلاث سنوات في العبادة والمجاهدة قبل العودة ثانية إلى فاس ، وفي السنة الموالية التقى بكاتبه وخازن أسراره سيدي محمد بن المشري الحسني السباعي السائحي التكرتي الدار(54)، ومنذ التقائه به " صار يؤم به الصلاة وبأهله ... ويقوم مقامه في كتابة الأجوبة حتى سنة 1794/1208 وهي السنة التي بدأ فيها سيدي أحمد التجاني يقوم بالإمامة بنفسه امتثالا لأمر جده عليه السلام ..."(55). في سنة 1777 / 1191 شد سيدي أحمد التجاني الرحال من تلمسان إلى فاس (56) قصد زيارة مولاي إدريس الأزهر ، وفي الطريق التقى سيدي علي حرازم برادة الفاسي لأول مرة ، فتوجها معا إلى مدينة فاس ، وخلال هذا اللقاء لقنه الطريقة الخلوتية وبذلك يكون سيدي أحمد التجاني قد لقن هذه الطريقة أول ما لقنها لأول الناس إليه محمد بن المشري وعلي حرازم برادة(57). وقد كانا بالفعل عند حسن ظنه للتفاني الذي أظهراه في خدمة انتشار تعاليم الطريقة. وبعد زيارة ضريح مولاي إدريس أخبر خليفته علي حرازم برادة بأنه عازم على العودة إلى تلمسان ، فودع خليفته في نفس السنة التي وصل فيها إلى فاس وطلب منه ملازمة العهد والمحبة وصدق التوجه إلى الله . وهنا نتوقف قليلا لنشير ، بالمناسبة ، إلى أن رغبة سيدي أحمد التجاني في مغادرة فاس إلى وجهة أخرى لا يمكن ربطها بسوء أحوال المغرب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا على عهد سيدي محمد بن عبد الله ، كما ذهب إلى ذلك البعض(58). باعتبار أن ظروف المغرب لم تكن أحسن حالا ، لا خلال زيارته السابقة عن هذه إلى فاس ، ولا عندما قرر الاستقرار بهذه المدينة بشكل نهائي في عهد مولاي سليمان ، ونرى من الأنسب القول أن حركات هذا الشيخ وسكناته وتبعا لطبيعة تكوينه العلمي والروحي ، كانت تخضع للمشيئة الإلهية والهواتف الربانية غير أن عدم ارتياح سيدي أحمد التجاني للإقامة في تلمسان والاستقرار بها ، أمر مؤكد على لسانه كما أورده تلميذه ومريده علي حرازم برادة عندما قال متحدثا عن شيخه "... ورجع إلى تلمسان وأخبرني بأنه ينتقل من تلمسان إلى مكان آخر لأن حاله لم يستقم بها وضاقت نفسه ..."(59) ولعل الأمر هنا يتعلق بمضايقة السلطات العثمانية له كما سيتضح لاحقا. لا تفصح المصادر عن السنة التي غادر فيها الشيخ التجاني فاس في اتجاه تلمسان التي مكث بها تبعا لما ورد في جواهر المعاني والجامع لما افترق ، إلى حدود سنة 1781 – 2 /1196 ليغادرها إلى قصر الشلالة الذي يبعد عن البيض بحوالي 120 كلم ، وهناك دامت إقامته ثلاث سنوات توجه بعدها للاستقرار بقصر أبي سمغون حيث ضريح الولي الصالح الذي سمي القصر باسمه(60). ومما يسترعي الانتباه في هذه الإقامة طول مدتها التي ناهزت أربع عشرة سنة قبل رحيله النهائي إلى فاس، فهل كان سيدي أحمد التجاني يعرف بفراسة المؤمن التي لا تخطئ أن أمره سوف يقضى انطلاقا من بقعة الولي أبي

سمغون الطاهرة ؟ كيف لا وهو العبد الملحاح المجاهد الذي طاف أرض العروبة والإسلام من مغربها إلى مشرقها ، ذهابا وإيابا بحثا عن المعرفة والولاية والصلاح في مواطنها الأصلية ومن أفواه رجالاتها البررة ، سائلا ومستفسرا أحيانا ، أستاذا وطالبا أحيانا أخرى ، ممتثلا لبعض إشارات العارفين ورافضا لأوامر بعضهم وذلك تبعا للفهوم التي كانت ترد عليه عن طريق النفحات والأنوار الإلهية ، فكان التتويج وبلوغ المرام بالحصول على الولاية والتحدث مع خير الأنام بقرية أبي سمغون القريبة من مسقط رأسه عين ماضي.

III - إدراك الولاية والقطبانية بأبي سمغون بفضل العناية المحمدية :

كيف ما كانت الأسباب التي جعلت سيدي أحمد التجاني يترك مدينة الجدار (تلمسان) ، في اتجاه الجنوب ، فإن الشيء الأكيد هو أنه حل بقصر أبي سمغون في سنة (61)1781 –2/1196 .وبه حصل له الفتح الأكبر والولاية العظمى التي صبر وصابر من أجل الوصول إليها ، ويلاحظ أنه قبل حصول هذا الفتح تغيب عن قرية أبي سمغون مرتين لفترتين قصيرتين على ما يبدو ، قصد إنجاز ما تبقى من المساعي الضرورية لنيل المراد فتوجه في المرة الأولى إلى توات لزيارة العارف بالله سيدي محمد بن الفضيل ، وهو من أهل تكورارين في توات الغربية فأخذ كل واحد منهما عن الآخر بعض أسرار الطريق ، كما لقي في توات بعض الرجال الكمل "واشترى منه شيئا من الأسرار بثلاثة عشر محبوب من الذهب الخالص"(62). أما في المرة الثانية فقد توجه إلى مدينة تازة ، وبها التقى بصاحبه وتلميذه العارف بالله سيدي محمد بن العربي الدمراوي التازي الذي كان يقوم بدور الوساطة في الأجوبة التي كان ينقلها له من الرسول (ص)، باعتبار أن الشيخ التجاني كان يسأل النبي (ص) بواسطة تلميذه هذا ، في أول مرة ، لأنه عندما كان يجتمع به لم يكن يقوى على مساءلته مباشرة ، تأدبا مع الحضرة الشريفة(63).

في غمرة هذه الأجواء العطرة والتردد على الأعتاب الشريفة ، حصل لسيدي أحمد التجاني الفتح بأبي سمغون منذ السنة الأولى التي أقام بها بعد رحيله من تلمسان عام 1196 ، فأذن له الرسول (ص) يقظة لا مناما ، في تلقين الخلق على العموم والإطلاق ، وعين له الورد الذي يلقنه ، ويلاحظ أن تعيين هذا الورد من قبل الرسول (ص) أتى على مرحلتين(64).

أ – في سنة 1196 كلفه بالاستغفار مائة (100) مرة والصلاة على سيدنا محمد مائة (100) مرة ، وأذن له تبعا لذلك بتلقينه لكل من رغب فيه من المسلمين والمسلمات ، بعد تحديد الشروط والتزام المريد بها.

ب – وفي رأس المائة وهو عام 1200هـ زاده في الورد اللازم مائة من الكلمة المشرفة لا إله إلا الله.

ولما أذن له صلى الله عليه وسلم في هذه الطريقة الأحمدية ، وفتح الله على يده (ص) أخبره (ص) أنه مربيه وكافله وأنه لا يصله شيء مـن الله إلا علـى يديـه وبواسطته ولا منة لأحد من شيوخ الطرق عليه "فأنا واسطتك وممـدك ...فـاترك عنك جميع ما أخذت من جميع الطرق ... والـزم هـذه الطريقـة مـن غيـر خلـوة ولا اعتـزال عن الناس حتى تصل مقاما كالـذي وعدت بـه مـن غيـر ضيـق ولا حرج ولا كثرة مجاهدة واترك عنك جميع الأولياء..."(65).

وعملا بهذا الأمر المحمدي ترك سيدي أحمد التجاني جميع الطرق ولـم يعـد يطلب أي شيء من الأولياء ، وهذا يدل على أهمية مرتبة الشيخ التجـاني عنـد الله ورسوله كما أخبره بذلك سيد الوجود ، لأن فتحه ووصوله كان علـى يـده (ص). ومن كان فتحه ووصوله على يديه كان أرفع قدرا وأعظم شأنا. ومنذ وقـوع هـذا الفتح والفيض بدأ يتكاثر على شيخنا ورود الأنوار والأسرار والترقيات فـي أبـي سمغون أو في عين ماضي التي أصبحت أول مركز للطريقة التجانيـة(66) بعـد أن حل مباشرة عقب تمكنه من إدراك الولاية والمشيخة ومباشرة التربية الروحية بإذن من الرسول. وما أن اشتهر أمره وذاع خبره بين الناس ، حتى شرعت تتوافد عليـه أعداد كثيرة من الخلق بغية الأخذ عنه والانتماء إليه ، والاستزادة مما كان يمدهم به في الحس والمعنى من الإمدادات الغير المألوفة. ويصف صاحب البغية هذه الكـثرة من الناس على الشيخ بقوله : "... فتـرى الناس مـن شـدة الازدحـام علـى أتباعـه وكثـرة الوفود منهم على بابـه كأنهـم يطـوفون بالكعبـة المشـرفة أو يضجون بالتلبيـة يـوم عرفـة..."(67).

بعد أن ركز سيدي أحمد التجاني أسس الزاوية الأم بعين ماضي بقي على هـذه الحالة ينشر الطريقة ويأذن في الأوراد متنقلا بينها وبين أبي سمغون وتـوات. وإذا ما صدقنا ما ورد في بعض الكتابات الفرنسية حول الموضوع(68) فإنـه فـي هـذه المرحلة زار الشيخ التجاني تونس والصحراء والسودان الغربي ، يؤسـس الزوايـا أحيانا ويعين المقدمين أخرى في الأقاليم التي يمر بها من أجل ضمان انتشار واسـع لطريقته ، بتلك الأصقاع ،دون الإفصاح عن مصادرهم في هذه الإفادات، في حيـن لا تذكر الأدبيات التجانية شيئا عن مثل هذه الرحلات خارج عين مـاضي وأبـي سمغون بعد سنة 1781 إلى حين هجرته إلى فاس ، فأين تكمن الحقيقة ؟ ومـا هـي مصلحة هذا الطرف أو ذاك في السكوت عن أحداث وقعت بالفعل ،أو تلفيق وقـائع تاريخية لا أساس لها في الوجود ؟ قد يتعلق الأمر بالحرب البـاردة المعلنـة بيـن تجانيي تماسين وعين ماضي من جهة وتجانيي فاس من جهة ثانيـة(69) فـالأوائل يريدون إبراز الأهمية التي أولاها سيدي أحمد التجاني للطريقة بمسقط رأسـه قبـل انتقاله إلى فاس باعتبار أن إشعاعها في اعتقادهم كان قد اخترق كل الآفـاق قبـل هجرته إلى العاصمة الإدريسية ، في حين يرى الأخيرون أن الجهود الكبرى لنشـر تعاليم الطريقة بدأت انطلاقا من فاس لتعم المغرب الأقصى بكامله ، أولا ، فبـاقي

انطلاقا من عين ماضي والواحات المجاورة لها ، هو الذي جعل من التجانية قوة حقيقية منذ سنة 1783 / 1198 ، بدأت تقلق الحكومة التركية ، بل أدى بها خوفها إلى شن حملات عسكرية على عين ماضي وفرض إتاوة على الشيخ التجاني وأتباعه ، مرة سنة 1784 – 5 / 1199 وأخرى سنة (75)1787 / 1202–1201 فهل يصح تفسير هجرة سيدي أحمد التجاني إلى فاس بهذا التضييق الذي مورس ضده من قبل الحكام الأتراك ؟ أم هناك أسباب أخرى ؟ سنعود لمناقشة هذه المسألة في فصل لاحق. وقبل الانتقال إلى فصل آخر لابد من أن نقف عند مسألة أثارت الكثير من الانتقادات من قبل خصوم التجانية خصوصا الفقهاء من علماء الشريعة ونقصد بذلك رؤية سيدي أحمد التجاني للرسول (ص) ومخاطبة هذا الأخير له يقظة لا مناما ، وأخذه ورد طريقته عنه (ص) مباشرة وبدون واسطة ، ومن حصل له مثل هذا الفتح يصير بداهة في فهم التجانيين ، مستغنيا عن وساطة أي شيخ من شيوخ الطرق الصوفية ويكون بذلك شيخه ومرشده ، هو جده النبي محمد صلى الله عليه وسلم فإلى أي حد يمكن لهذا الطرح أن يصمد أمام انتقادات المنكرين عليهم ؟

يبدو أن التجانيين وفي مقدمتهم سيدي أحمد التجاني(76) كانوا يتوقعون مثل هذه الاعتراضات ، فعلاوة على أن مبادئ طريقتهم لا تخرج في مجملها عن تعاليم الشريعة الإسلامية ، على غرار الطرق الصوفية المشهورة الأخرى فإن عددا من العلماء الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة في مختلف الأقطار الإسلامية، قالوا بجواز رؤية النبي (ص) يقظة ، وعلى آراء بعضهم اعتمد بعض فقهاء التجانية لمحاولة إثبات حقيقة ما وقع لشيخهم مع الرسول (ص) ، مستدلين على ذلك ببراهين من الكتاب والسنة ، ونكتفي بالاستشهاد بنموذجين من فقهاء التجانية ، في الموضوع هنا : محمد العربي بن السايح من المغرب ، والحاج عمر الفوتي من السودان الغربي.

أ ـ محمد العربي بن السايح : قدم في كتابه بغية المستفيد لشرح منية المريد ، عدة استشهادات تفيد مشاهدة الرسول (ص) "يقظة بعين الرأس لذاته الحقيقية فقد نص على جوازها جماعة من الأئمة المعتبرين ..."(77) في مقدمة هؤلاء المستشهد بهم حسب نفس المصدر نجد جلال الدين السيوطي الذي أورد في مؤلف الأعلام بحكم عيسى عليه السلام أن جماعة من أئمة الشريعة نصوا على أن من كرامات الولي أنه يرى النبي (ص) ويجتمع به في اليقظة ويأخذ عنه ما قسم له من معارف ومواهب. وقد تكرر رأي السيوطي هذا ، في مؤلف آخر له يحمل عنوان تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك ، طبقا لما أورد ابن السايح في بغيته. ثم أضاف إلى رأي السيوطي آراء كل من القرافي والغزالي وأبو بكر بن العربي والبيهقي والقاني(78).

انطلاقا من عين ماضي والواحات المجاورة لها ، هو الذي جعل من التجانية قوة حقيقية منذ سنة 1783 / 1198 ، بدأت تقلق الحكومة التركية ، بل أدى بها خوفها إلى شن حملات عسكرية على عين ماضي وفرض إتاوة على الشيخ التجاني وأتباعه ، مرة سنة 1784 – 5 / 1199 وأخرى سنة 1787(75) / 1202–1201 فهل يصح تفسير هجرة سيدي أحمد التجاني إلى فاس بهذا التضييق الذي مورس ضده من قبل الحكام الأتراك ؟ أم هناك أسباب أخرى ؟ سنعود لمناقشة هذه المسألة في فصل لاحق. وقبل الانتقال إلى فصل آخر لابد من أن نقف عند مسألة أثارت الكثير من الانتقادات من قبل خصوم التجانية خصوصا الفقهاء من علماء الشريعة ونقصد بذلك رؤية سيدي أحمد التجاني للرسول (ص) ومخاطبة هذا الأخير له يقظة لا مناما ، وأخذه ورد طريقته عنه (ص) مباشرة وبدون واسطة ، ومن حصل له مثل هذا الفتح يصير بداهة في فهم التجانيين ، مستغنيا عن وساطة أي شيخ من شيوخ الطرق الصوفية ويكون بذلك شيخه ومرشده ، هو جده النبي محمد صلى الله عليه وسلم فإلى أي حد يمكن لهذا الطرح أن يصمد أمام انتقادات المنكرين عليهم ؟

يبدو أن التجانيين وفي مقدمتهم سيدي أحمد التجاني(76) كانوا يتوقعون مثل هذه الاعتراضات ، فعلاوة على أن مبادئ طريقتهم لا تخرج في مجملها عن تعاليم الشريعة الإسلامية ، على غرار الطرق الصوفية المشهورة الأخرى فإن عددا من العلماء الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة في مختلف الأقطار الإسلامية، قالوا بجواز رؤية النبي (ص) يقظة ، وعلى آراء بعضهم اعتمد بعض فقهاء التجانية لمحاولة إثبات حقيقة ما وقع لشيخهم مع الرسول (ص) ، مستدلين على ذلك ببراهين من الكتاب والسنة ، ونكتفي بالاستشهاد بنموذجين من فقهاء التجانية ، في الموضوع هنا : محمد العربي بن السايح من المغرب ، والحاج عمر الفوتي من السودان الغربي.

أ ــ محمد العربي بن السايح : قدم في كتابه بغية المستفيد لشرح منية المريد ، عدة استشهادات تفيد مشاهدة الرسول (ص) "يقظة بعين الرأس لذاته الحقيقية فقد نص على جوازها جماعة من الأئمة المعتبرين ..."(77) في مقدمة هؤلاء المستشهد بهم حسب نفس المصدر نجد جلال الدين السيوطي الذي أورد في مؤلف الأعلام بحكم عيسى عليه السلام أن جماعة من أئمة الشريعة نصوا على أن من كرامات الولي أنه يرى النبي (ص) ويجتمع به في اليقظة ويأخذ عنه ما قسم له من معارف ومواهب. وقد تكرر رأي السيوطي هذا ، في مؤلف آخر له يحمل عنوان تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك ، طبقا لما أورد ابن السايح في بغيته. ثم أضاف إلى رأي السيوطي آراء كل من القرافي والغزالي وأبو بكر بن العربي والبيهقي والقاني(78).

ومن الأحاديث النبوية التي استدل بها ابن السايح في الموضوع ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس (ض) "أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبر موسى عليه السلام فإذا هو حي في قبره يصلي قائما"(79)ثم حديث "الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون"(80). وبعد أن عرض هذه النقول ، خلص إلى القول بأن رؤية النبي (ص) في عالم الحس وما يتبع ذلك من الأخذ عنه ومساءلته ومشاورته في بعض الأمور ممكن عقلا ثابت نقلا لا مانع منه لمن أكرمه الله من الأولياء.

ب ـ الحاج عمر الفوتي: خصص هذا الفقيه فصلا كاملا لمناقشة هذه المسألة تحت عنوان : الأولياء يرون النبي (ص) يقظة ، ضمن كتابه رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم. وهذه بعض الأدلة التي قدمها في هذا الكتاب.

ويتصدرها رأي السيوطي ، كما تقدم عند ابن السايح في البغية ، الذي أفاد بشأنه الحاج عمر الفوتي أنه قال في تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك أن طائفة من أهل العصر ممن لا قدم لهم في العلم أنكروا إمكان رؤية النبي يقظة وادعوا أنه مستحيل ، مما جعله يؤلف كتابه المنوه به وبدأه بالحديث الصحيح الوارد في هذا الشأن :" أخرج البخاري ومسلم وأبو داوود عن أبي هريرة (ض) قال قال رسول الله (ص) من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ، ولا يتمثل الشيطان بي"((81) واخرج الطبراني مثله من حديث مالك بن عبد الله وأخرج الدرامي مثله من حديث أبي قتادة(82) . ثم استشهد صاحب رماح بعد ذلك بالشعراني في لواقح الأنوار القدسية في العهود المحمدية ، الذي يرى أن كل من أكثر من الصلاة والتسليم عليه (ص) ربما يصل إلى مقام مشاهدته، كما حصل للشيخ نورالدين الشوفي والشيخ أحمد الزواوي والشيخ أحمد بن داوود المنزلاوي ... فلا يزال أحدهم يصلي على رسول الله (ص) ويكثر منها ويتطهر من الذنوب حتى يجتمع به يقظة في أي وقت شاء(83)، ثم أورد الحاج عمر قول سيدي علي الخواص الذي يرى أنه لا يكمل عبد في مقام العرفان حتى يصير يجتمع برسول الله (ص) يقظة ومشافهة. وممن كان يراه يقظة من السلف الصالح تبعا لسيدي علي الخواص، الشيخ أبو مدين المغربي شيخ الجماعة ... والشيخ أبو الحسن الشاذلي والشيخ أبو العباس المرسي ... وسيدي إبراهيم المتولي والشيخ جلال الدين السيوطي(84).

ومن أهم رجالات التصوف الأخرى الذين اعتمد صاحب رماح حزب الرحيم على آرائهم في الموضوع :

ـ محيي الدين ابن عربي في الباب الثالث والستين وأربعمائة في الفتوحات المكية(85).

ـ الشيخ عبد العزيز بن مسعود الدباغ ، في الإبريز(86).

ـ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن (87).

ــ القرطبي في التذكرة (88).
ــ أبو علي في مسنده (89).
ــ البيهقي في كتابه الأنبياء.
ــ القاضي عياض في أحد مؤلفاته.
ــ ثم استشهد المؤلف بقوله تعالى :"ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"(90).

بعد عرض كل هذه النقول والأحاديث ، خلص الحاج عمر إلى القول بأن النبي (ص) حي في جسده وروحه وأنه يتصرف ويسير حيث يشاء في أقطار الأرض وأنه مغيب على الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم ، فإذا أراد الله ، يضيف نفس المصدر رفع الحجاب عمن أراد إكرامه برؤيته رآه على هيأته التي هو عليها(91).

يشكل إذن ما جاء في كتابي منية المريد لمحمد العربي بن السايح ، ورماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم للحاج عمر الفوتي ، نموذجين فقط من بين كتابات أخرى في الموضوع ، ردا على كل المنتقدين والمعترضين على ما نسبوه لشيخهم من مشاهدة الرسول ومشافهته يقظة. وبما أن الله على كل شيء قدير ، في تصورهم ، ونظرا لكون شيخهم ، أدرك عند الله أسمى درجات القرب والوصول بشهادة الأصدقاء والأعداء ، فإن أوفى جزاء من الله وأجزله لعبده الفقير إليه هذا هو التكرم عليه بمشاهدة نبيه (ص) ، وتشريفه بأخذ الورد عنه مباشرة بواحة أبي سمغون. فهل يحتاج الأمر إلى دليل أكثر من هذا يقول التجانيون ، لإقرار أن شيخ سيدي أحمد التجاني هو جده المصطفى (ص) ؟ ومن كان شيخه هو الرسول فهل يحتاج إلى شيخ للتربية من شيوخ الطرق الصوفية الأخرى؟ رغم هذه التبريرات المقبولة عقلا ونقلا ، فإن خصوم التجانية منذ نشأتها لم يضعوا السلاح ، بل ردوا على موقف التجانيين بشكل منطقي واعتمادا على الكتاب والسنة أيضا، ليس فيما يخص مسألة جواز رؤية النبي (ص) يقظة أو عدمها فحسب،ولكن فيما يتعلق بنقط خلاف أخرى كما سيأتي.وإذا تركنا هذا الجانب المثير للجدل ، فإن الأمر الذي لا يختلف فيه اثنان هو بروز سيدي أحمد التجاني كشيخ عارف بالله كرس حياته للتربية الروحية والأخذ بيد السالكين لترقيتهم إلى أعلى درجات القرب من الله وخصوصا بعد هجرته إلى فاس للإقامة بها بصفة نهائية إلى آخر حياته .

الهوامش :

1) ـــ سورة البقرة ، الآية : .281

2) ـــ علي حرازم برادة ، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني ، وبهامشه كتـــاب رمـــاح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم لعمر بن سعيد الفوتي الكدوي، دار الجيل ، بيروت 1988 ، ج 1 ، ص : .12

3) ـــ سورة الأعراف ، الآية :.96

4) ـــ سورة الطلاق ، الآية :.3

5) ـــ سورة العنكبوت ، الآية : .69

6) ـــ يحيى بن شرف الدين النووي ، شرح الأربعين النووية في الأحـــاديث الصحيحـــة النبويـــة ، دون مكـــان ولا تاريخ:.87

7) ـــ هذا التاريخ الذي أورده كل من علي حرازم برادة ، ص :22 من جواهر المعاني ، ومحمد بن المشري في الجـــزء الأول :8 من الجامع لما افترق من درر العلوم الفائضة من بحار القطب المكتوم ، بصفتهما خليفتي الشـــيخ التجـــاني ، والناطقين باسمه والراوين عنه ، هو الذي تبنته مصادر تجانية أخرى لاحقة أهمها:

ـــ أحمد أديب المكي ، رسالة بلوغ الأماني في مناقب الشيخ سيدي أحمد التجاني ، مطبعة الحاج أحمد الأزرق ، فـــاس عام1315م.

ـــ محمد العربي بن السائح الشرقي العمري ، بغية المستفيد لشرح منية المريد ، دار الفكر 1973 ، ص :.140

أحمد سكيرج ، كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب ، المكتبة الشعبية ، بيروت 1988، :.10

8) ـــ محمد بن عبد القادر الجزائري ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، شرح وتعليق الدكتور ممـــدوح حقي ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر1964 ، ص :125 و303.

9) ـــ إدريس العراقي ، اليواقيت العرفانية في التعريف بالشيخ أحمد التجاني وبطريقته وزاويته الأم التجانيـــة ، مرقـــون ضمن أعمـــال ندوة الطريقة التجانية التي انعقدت بفاس من 23 إلى 29 دجنبر 1985 ، ص :.25

10) ـــ يمكن الرجوع في هذا الصدد إلى كل المصادر الواردة في الهامش رقم 7.

11) ـــ محمد بن عبد القادر الجزائري ، مصدر سابق ، :.303

12)- A bu n-Nasr (J.) , the Tijaniyya, A Sufi order in the modern world. Oxford University press, London New york,Toronto,1965, p : 16.

13) ـــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج 1 ، ص : .26

14) ـــ نفســـه .

15) ـــ تقع هذه البلدة في قدم جبال أمور على بعد 70 كلم ، غرب الأغواط بالمغرب الأوسط . أنظر :

- Gouilly (A), l'islam dans l'Afrique occidentale française, Paris 1952, p : 110.

- Rinn (L.), Marabout et Khouan, étude sur l'islam en Algerie, Alger 1884,p : 416.

16) ــ يرى أبو نصر جميل أن عين ماضي التي ولد فيها أحمد التجاني بنيت في القرن الخـامس الهجـري / 11م ، وأن الذي شرع في بنائها قرب إحدى العيون يسمى ماضي بن يعقوب ، وهي العين الذي حملت إسمه ثم القرية أيضـا بعـد ذلك التي حملت نفس الإسم ــ أنظر : - AbuN-Nasr (J.), op. Cit , p :16. وإسم ماضي هـذا ورد في تحفـة الزائر (ص:304) الذي أحال عليه جميل أبو نصر عندما أورد هذا الخبر ، لكن بشكل مشوه باعتبار أن الاسم الصحيـح هو ماضي بن يقرب وليس بن يعقوب ، وقد أورد صاحب التحفة هذا الخبر عندما كان بدد التـأريخ لحصـن عـين ماضي:"وهذا الحصن اختطه ماضي بن يقرب، من أقيال العرب، في المائة الخامسة ، لأول استيلاء العرب على المغـرب الأوسط أيام العبيديين ..." ، مع ملاحظة أنه لم يحل في هذه الإفادة على أي مصدر. أما ماريا عواد فقـد أفـادت في دراسة لها أن مؤسس قرية عين ماضي شخص يدعى المهدي في الأصل ، ومع كثرة تداول هذا الاسم بمـرور الزمـن تحول إلى ماضي ، دون أن تكون مقنعة في هذه الإفادة:

-Awad (M: (.Un fondateur de Confrérie religieuse Maghrebine : Sidi Ahmed Al Tajani (1737 – 1815) , Revue Maroc Europe, n°2 , 1992 , p : 258, n. 7.

وحتى عندما أحالت على دارس آخر ، هو مارسيل سيميان لم تأت بجديد . أنظر :

-Semian (M.) , les confreris islamiques en Algérie : Rahmanva-Tidjanya ; thèse pour le doctorat (Science politiques et économiques), soutenue le 8 Juin 1910 à la faculté d droit, Université de Paris, p p : 69. 70.

كان يجدر بالباحثة ماريا عواد أن تحيل على كوبولاني وأوكطاف اللذين أثارا بالفعل مسألة تحريف الاسم من مـهدي إلى ماضي ، دون ذكر مصادرهما : - Coppolani (Xavir) et Octave Dépont , les confréries religieuses musulmanes, Alger, 1897, pp413 et s .

17) ــ نقلا عن محمد العربي بن السايح ، بغية المستفيد لشرح منية المريد ، دار الفكر 1973 ، ص : 138.

18)- Coppolani (X.) et Octave(D.), op. Cit, p p : 413 et ss.

19)- Rinn (L.), op.cit, p p : 416 – 417.

209 ــ فرح محمود فرج ، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، دراسة لأوضـاع الإقليـم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، مع تحقيق كتاب القول البسيط في أخبار تمنطيط لمحمد بن بابـا حيـدة ، أطروحة الدور الثالث في التاريخ جامعة الجزائر. معهد العلوم الاجتماعية ــ دائرة التاريخ. الجزائر 1977 ، :88 ومـا بعدها.

21)- Coppolina (X.) et Octav (D.), op. cit, p : 416.

- Semian (M.), op. cit , p : 69.

22) ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.24.

23) ــ نفســه.

24) ــ نفسه ، :.26

25) ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق، ج I ، ص : .25

26) ــ نفسه .

27) ــ محمد بن المشري ، الجامع لما افترق من درر العلوم الفائضة من بحر القطب المكتوم ، مخطوط بخزانة الباحث، ج1،ص:.7

28) ــ إدريس العراقي ، اليواقيت العرفانية ، مصدر سابق، :.11

29) ــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص : .145 ــ محمد بن المشتري ج I ، ص : .9

Awad (M), op . cit , p : 237. -

30) ــ علي حرازم برادة ج I ، مصدر سابق ، ص:.24

Semian (M.) , op. cit , p : 69. -(31

32) ــ علي حرازم برادة ،م.س، ج I ، ص: .29 ــ أحمد سكيرج : مصدر سابق ، ص .

ــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص: .149

- Brque (J.) , l'Interiur du Mghreb, XV° - XIX° siéle , Paris , 1978, p : 240.

33) ــ محمد ابن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص:.13

ــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص :.149

.Awad (M.) , op.cit, p: 238 - (34

35) ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ص : .37

ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ،ص :.14

36) ــ إدريس العراقي ، مصدر سابق ، ص : .14

37) ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.14

ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.37

ــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص :.158

38) ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.37

39) ــ نفسه ، ص : .38

ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص : .14

ــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص :.158

40) ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.14

ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.38

ــ محمد العري بن السايح ، مصدر سابق ، ص :.159

41) ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.14

ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.38

42) ــ نفسه ، ص : 38.

43) ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص:.15-14

44) ــ إدريس العراقي ، مصدر سابق ، ص : 161.

Awad (M.) , op. cit, p : 239.

45) ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.30

ــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص :.161

46) ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.15

ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.38

47) ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.15

ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.39-38

48) ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.39

49) ــ نفسه ، ص : 39.

ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.15

ــ إدريس العراقي ، مصدر سابق ، ص : 16.

50) ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.40

ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.15

ــ إدريس العراقي ، مصدر سابق ، ص : 16.

51) ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.41-40

ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.16

52) ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.41

ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.16

53) ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.41

ــ إدريس العراقي ، مصدر سابق ، ص : 17.

54) ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.16

ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.42

55) ــ إدريس العراقي ، مصدر سابق ، ص : 17.

ــ أحمد سكيرج ، مصدر سابق ، ص :.150 — 149

56) ــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص :.171

57) ــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :. 43 - 42

ــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.16

ــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص :.172

58) - Awad (M.) , op. cit , p : 241.

59) ـــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.43

ـــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص :.172

60) ـــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.43

ـــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.28

ـــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص :.173

61) ـــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.43

ـــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.28

62) ـــ إدريس العراقي ، مصدر سابق ، ص : .19

63) ـــ نفســـه .

64) ـــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.43

65) ـــ نفســـه . ـــ محمد بن المشتري ، مصدر سابق ، ج I ، ص :.28

66) - Semain(M.) , op.cit,p : 71.

- Coppolani (X.), et Octave (D.), op. cit , p : 416.

67) ـــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص :.179

68)- Coppolani (X.) et Octave(D.) , op. cit, p : 416.

- Rinn (L.), op. cit, p : 420.

- Semian (M.), op. cit, p : 76

69) ـــ تجدر الإشارة هنا ، إلى التنافس الحاد الذي حل بين زاوية عين ماضي غربا وزاوية تماسين شرقا بالمغرب الأوسط ، بعد وفاة الشيخ التجاني حول من يستحق منهما تولي زعامة الطريقة التجانية روحيا وماديا ، وهو التنافس الذي تطور إلى صراع بين الطرفين أدى إلى انفصال الزاويتين عن بعضهما البعض أنظر :- Gouilly (A), op. cit , p : 109 – 110.

- Rinn (L.) , op. cit, p : 430 et s.

70) ـــ نفس الرأي يستنتج من خلال عمل جميل أبو النصر :- AbuN-Nasr (J.), op. cit, p : 19 et s.

71) ـــ ابن بابا الشنقيطي العلوي التجاني ، منية المريد في الطريقة التجانية مكتبة السعادة تونس نهج الكتبية .د ، ت.ص:.5

ـــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص:.172

72) ـــ ابن بابا الشنقيطي العلوي التجاني ، مصدر سابق ، ص :.5

ـــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص:.178

73) ـــ ابن بابا الشنقيطي العلوي التجاني ، مصدر سابق ، ص :.6

ـــ محمد العربي بن السايح ، مصدر سابق ، ص:.180

74) ـــ علي حرازم برادة ، مصدر سابق ، جI ، ص: 44.

75) - Rinn (L.) , op. cit , p : 420.

76) ـــ نسب صاحب الإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية ، لشيخه سيدي أحمد التجاني قوله :"طريقنا طريق محـــض الفضل أعطاها لي صلى الله عليه وسلم منه إلي من غير واسطة يقظة لا مناما" أنظر : ـــ محمد الطيب الســـــفياني ،م.س ،ص : 58.

77) ـــ محمد العربي بن السائح،م.س. ص : 210.

78) ـــ نفســـه.

79) ـــ نفسه ، ص :.211

80) ـــ نفسه ، ص : 212-211.

81) ـــ عمر بن سعيد الفوتي ،رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم ، هامش كتاب جواهر المعـــاني ، مصـــدر سابق ، ج I ، ص : 216.

82) ـــ نفسه.

83) ـــ نفسه ، ص :.210

84) ـــ نفسه ، ص : 210.

85) ـــ نفسه ، ص :.212

86) ـــ نفسه ، ص :.215

87) ـــ نفسه ، ص :.218

88) ـــ نفسه ، ص:.219

89) ـــ نفسه ، ص :.220

90) ـــ نفسه .

91) ـــ نفسه .

